١

# ابن النفيس

## مكتشف الدورة الدموية الصغرى





تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

مركز الأهرام للترجمة والنشر

علماء العرب




مكتشف الدورة الدموية الصغرى

سليمان فياض

الطبعة الأولى

١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٥م

الطبعة الثانية

١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م



الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام ـ شارع الجلاء ـ القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ ـ تلكس ٩٢٠٠٢ يوان



# العودة من حِمص

إلى قريةِ « القَرَشيّة » عاد من « حِمص » شابٌ طويلُ القامة ، نحيفُ العود ، مستطيلُ الوجه ، اسمه : أبو العلاء « علاءُ الدين علىّ بن أبى الحزْم بن النَّفيس القَرَشىّ » ، وكان قد أتمّ دراستَه فى مدينة « حِمص » السورية ، للفقه ، وللحديث ، ولعلومِ اللغةِ العربيةِ من نحوٍ ، وصرف ، وبيان ، ومعانٍ ، وبديع .

وفرِح بعودتِه أبواهُ ، وأقاربُه ، وأهلُ حِمص ، فسوف يكون « علىّ » هو عالِمُ الفقهِ واللغةِ فى قريةِ القَرَشية . لكن علاء الدين علىّ بدّد فرحتهم ، فقد أعلن لهم عزمَه على الرحيل إلى دمشق ، لكى يدرُس الطبَّ فى مستشفاها الكبير ، المعروفِ آنذاك بالبيمارستان النُّورى .

ودهش والده أبو الحزم . وعارض رغْبَته وعزمَه ، فقال له عليّ :

ـ علماءُ الفقهِ واللغةِ فى زمانِنا كثيرون . والأطباءُ قليلو العددِ فى بلادِ العربِ والمسلمين . وأنا أميل إلى دراسة الطبّ ، لأعرفَ أسرارَ قدرةِ الله فى الجسمِ ، ولأَفِيد بعلمِى وعقلىِ ، وحبىٍّ للطب ، المرضَى من عبادِ الله .

وأدرك أبو الحزم صدقَ ولده فى عزمهِ ، وأنه لن يرجعَ أبداً عن قرارهِ ، وأدرك أنه قد بلَغَ سنَّ الرّشْدِ ، فسلَّمَ لولده بما يريدُه ، وزوَّدَه بمالٍ وفير .

وخرجَ لوداع علىّ ، فى سفرِه إلى دمشقِ ، الأقاربُ وأهلُ القَرَشية ، ولم يُفكّرْ أحدُهم ، لحظةً ، أنَّ أبا العلاء علىّ لن تُقَدَّر له العودةُ إلى القَرَشّية ، ولا إلى حِمص ، مرةً أخرى .

# واحة هادئة

كانت دمشق قد ورِثت مجدَ بَغداد الطبّى ، وازدهرَ فيها الطبُّ بفضلِ حكامِها الأيوبِيين ، حتى صارت دمشقُ مركزاً هاماً للعلومِ والفنونِ . وصارت موطِنا ثانياً للحضارةِ العربيةِ الإسلامية ، بعد أن خَبَا ضياءُ العلمِ فى بغدادَ ، والأندلس .

وكانت دمشق ، فى القرنِ الميلادِىّ الثالثِ عشَرَ ، واحةً هادئة ، وسَطَ عالَمٍ يَسودُه الاضطراب ، والصِّراعاتُ المذهبيّةُ والقبلية ، والمنازعاتُ السياسية ، وانقسامُ الدولةِ الإسلامية الكبرى إلى عددٍ من الدولِ والممالكِ والسلطنات . وإلى دمشقَ والقاهرةِ فر العلماءُ بعلمِهم وكُتُبِهم من بغدادَ ، ومن الأندلس .

وفى دمشقَ ، كانَ « نورُ الدين زنكى » ، الذى كان يوما والياً ( أتابكاً ) على دِمشق ، قد أنشَأ مكتبةً ضخمةً حَوَتِ الآلافَ من نَفائِسِ الكتُبِ فى كلّ علمٍ وفن ، وداراً للمرضَى ( بيمارستانا ) ، اجتَذَبَ إليه أمهرَ أطباءِ عصرهِ ، فى القرنِ السابعِ الهجرىّ ، الثالثِ عشر الميلادىّ ، وبين هؤلاءِ الأطباء ، كان تلاميذُ الطبيب النصرانىّ الشهير : « أمينُ الدولةِ ابنُ التلميذ البغدادى » . وقد حملوُا معَهم أشهرَ مؤلفاتِ الطبِّ فى عصرِهم ، وفى مقدمةِ هذه المؤلفات :

كتابَ « القانون » للشيخِ الرئيسِ « ابنِ سينا » ، وكتابُ « الحاوِي » للطبيب « أبوبكر الرّازى » .

وفى دمشقَ ، تَوَجَّهَ الشابّ « أبوُ العلاء علىّ » . وقدَّم نفسَه للطبيبِ الأستاذ الدّخْوار « مهُذِّبُ الدين عبدُ الرحيم » ، طبيبُ العيون الشهير ، ومديرُ البيمارستان النّورى ، ورئيسُ أطباءِ سورية ومصر . وقالَ له أبو العلاء علىّ ، وهو ابنُ الستةِ عشرَ ربيعاً :

ـ جِئتُ يا سيدى مهذّبَ الدين لأَتعلَّمَ الطبَّ على يَديْك ، وأنا لا أعرفُ فيهِ حَرفاً واحداً .

ورحَّبَ الطبيبُ الدّخْوار بالشابِّ أبى العلاء علىّ ، دراسِ اللغةِ والفقهِ والحديث . وزادَ ترحيبهُ بهِ ، وتفاؤُله له ، حين عرَف أن أبا العلاء قد وُلِدَ فى نفسِ السنة التى صارَ هو فيها رئيساً للبيمارستان النُّورى ، عامَ ستمائةٍ وسبعةٍ هجرية ، ألفٍ ومائتين وعشرةٍ ميلادية . وصَحِبَهُ الدّخْوار فى جولةٍ بالبيمارستان النُّورىِ .

# فى البيمارستان النُّورِى

ذهِشَ أبوُ العلاء علىّ فى جولتِه بالبيمارستان مما يراه : فالبيمارستانَ به أقسامٌ منفَصِلة ، للمرضَى من الرجال ، وللمرضَى من النساء ، وللمرضَى من الأطفالِ ، ولمرضَى الأمراضِ العقلية ، وبه قاعاتٌ مخُصَّصَةٌ لأنواعِ الأمراضِ ، حتى لا تنَتقلَ عَدْواها من مرضَى بعلَّةٍ ما ، إلى مرضَى بعلَّةٍ سواها . وأُلحِقَتْ به صيدليةٌ عامرةٌ بمخُتَلِفِ الأدويةِ الطبيعيّةِ من عقاقيرَ وأعشابٍ ، والأدويةِ الكيماويةِ المفْردةِ والمركبة . والأطباءُ المعالجونَ يدورون على المرضَى فى القاعات ، يتفقَّدُونَ أحوالَهم ، يُحيطُ بهم المشرفُون الذين يَقومُون على خِدمةِ المرضَى ، ويسارعُون بتقديمِ ما يكتبه الأطباءُ للمرضَى من دَوَاءٍ .

وزادَ عَزْمُ أبِى العلاء علىّ ، بعد أن رَأَى ماراَه ، على دراسةِ الطب ، ولم يُخْفِ انبهاره بماراَهُ عن أستاذِه الدّخْوار . فقال له الدّخْوارُ ضاحِكاً :

ـ انك لن ترى مثلَ ما رأيتَه الآن يا أبا العلاء ، فى أىّ دارٍ للمرضى إلا فى ديارِ الاسلام . ولو قُدِّرَ لك أن تَذهبَ إلى بلادِ الفِرنْجَةِ ، فسوف تَرَى عجباً هناك : المرضَى كلُّ أربعةٍ فى سريرٍ واحد ، دُونَ تفريق بينهم فى نوعِ المرض ، فَتَنْتَقَلَ بَيْنَهُمْ أمراضٌ لم يكونُوا مصابِين بها من قبل .



# مجلس الأطباء

وفى اليومِ التالى ، صَحِبَ الدّخْوارُ الشابَّ أبا العلاء إلى مجلِسِ أطباءِ المستشفى . فرأى بينهُم الطبيبَ الشيخ : « رضِيُّ الدين الرّحَبى » أستاذُ الدّخْوارِ ، الذى يربُو عمرُهُ عن تسعينَ سنة ، والطبيبَ الشيخ : « عمرانُ الإسرائيلى » ، الذى يزيدُ عمرهُ على ستينَ سنة . وقال الدّخوارُ لأبى العلاء علىّ :

ـ من حُسن حظِّكَ يا أبا العلاء أن طبيبَنا الشيخَ عمران يزورُ البيمارستان فى هذهِ الأيام ، لعلاجِ بعضِ الحالاتِ الخاصّةِ ، كدَأْبِه معنا ، كُلَّما كنّا فى حاجةٍ إليه .

وعَرفَ أبو العلاء أنَّ الطبيب الشيخ عمران كان بدوْرِه تلميذاً للرَّحَبى مع الدّخْوار ، وأنه خَيْرُ من يُعالِجُ المرضَى من الأمراض المزْمِنة ، وأن لهُ الفضلَ الكبيرَ فِي تزْويدِ البيمارستان النُّورِى بكتبِ الطبِّ الهامةِ ، وأنَّه يرفُضُ صُحبةَ الملوكِ ، ليظلَّ عِلمهُ وطبُّه للجميع .

وقدم الدّخْوارُ لأبى العلاءِ علىّ زملاءً له ، سَيدْرسُونَ الطبَّ معه بالبيمارستان النُّورِى ، وبينَهُم : « ابنُ أبِى أُصَيْبِعَة » ، و « بَدْرُ الدين المظَفَّر » ، و « عبدُ اللطيف المهندس » ، و « يوسُفُ السَّبْتى » .

كانَ مجلِسُ الأطباءِ في إيوانٍ فسيحٍ بقَلْعةِ البيمارستان . وكانت الكتُبُ الطبيةُ مصفوفةً في جَوانِبه ، وعلى مَداخِلِه . وكانت الأرض كلُّها مفروشةً بالبُسُطِ ، مُزَوَّدَةً بالوسائدِ والطَّنافِسِ الشرقيّة ، والمناضِدِ الواطِئةِ المعدَّة للقراءةِ وللكتابة .

وبَدَا الإيوان لأبِي العلاء عليّ قاعةً كبيرةً للدرسِ ، غارقةً في الضوءِ من كلِّ جانبٍ .

وأرْهفَ أبُو العلاء سمعه لأطباءِ البيمارستان ، وهم يطرَحُون ما صادفَهُم في يومهِم من مشكلاتٍ طبيةٍ على الأطباءِ الصغارِ والكبارِ . وظلَّ أبوُ العلاء مشدودَ النظرِ والسمعِ في الإيوانِ ثلاثَ ساعاتٍ . وكانتِ الشمسُ في الخارجِ تغرُبُ في الأفُق ، يعْكِسُ شَفَقَها على الجدرانِ زُجاجُ النوافذِ المتعددُ الألوانِ .

وبَدأَ أطباءُ البيمارستان ينَفَضُّون من المجلِس . وبَقِيَ الأطباءُ الثلاثةُ العظامُ مع تلاميذِهم الجُدُد ، ومن بينهم أبو العلاء ، يعُلمِونَهمُ الطبَّ في الكتُبِ المبسَّطةِ . وكان خدَمُ البيمارستان يضَيئُون القناديل والمِشكاواتِ في الإيوان .

وحانَ وقتُ الانصرافِ عندما انتصفَ الليل . ونَهضَ الدّخْوار قائلاً لأبي العلاء عليّ :

ـ أمازلتَ عازِماً على دارسةِ الطبِّ يابُنَّي ؟

فقال له أبو العلاء علىّ :

ـ بل ازْدَادَ عَزمى على دراستِهِ يا أستاذى . فَهُنَا ، فى هذا البيمارستان ، أجدُ العلمَ بالطبِّ ، وأجدُ الخبرةَ والعملَ به . وسوفَ لا يخيبُ ظنُّك فىَّ يا سيدى مهذَّبَ الدين

# عالم طبيب

مضَت على أبِى العلاء فى دِمشق عشرُ سنوات . وصار إماماً فى عِلمِ الطبِ ، يضاهى بعلمهِ فيه أساتذتَه العِظَام . وأصبحَ معروفاً فى الشام كلِّه باسم « ابنُ النفيس » ، اللقبُ الذى تحملهُ أسرته . وتناهتْ شُهرتهُ العلميةُ إلى أقارِبِه وأهلِ قريتهِ « القَرَشّية » ، وإلى رفاقِه فى دراسةِ اللغةِ والفقهِ بحِمص ، فَزَهوا به ، وافتَخروا بأنَّه واحدٌ منهُم .

وذاتَ يوم مسَحَ الدّخْوار بيدِه على رأسِ ابن النّفِيس فى حبٍّ ، وقال له :

ـ إنك يا بُنىّ ستكونُ فى الطبِّ عالماً ، وأرجُو للطبِّ ، كعلْمٍ ، تقدُّما على يديكِ فى مُقبِلِ السنين . فَتُضيفَ إليه ، بالتأْليفِ فيه ، فوقَ ما أضافه اليه : « جَالِينوس » و « أبقْراط » و « ابنُ سينا » . فلاتُضيِّع وقتَك كلَّه يا ابنَ النفيس فى العلاجِ



والمداواة . وتَذكَّر دائماً يابُنَّى ، أنك فى الطب من أهلِ العلمِ فيه . ولست من أهلِ الخبرةِ كطبيبٍ معُالجٍ

وبدأ أبو العلاء يعْملُ لتحقيقِ ما نصحَه به أستاذُه الدّخْوار . فعَكَفَ على دراسةِ طبّ اليونانِ القديم ، عندَ « جَالِينوس » ، و « أبُقْراط » حتى استوَعَبهمُا دَرْساً وحِفْظاً ، من كثرةِ قراءتِه ومراجُعتِه لهما . بل وشَرَع فى التعليقِ على آرائِهما فى الطبّ . كذلك عكَفَ على دراسةِ آراءِ ابنِ سينا الطبيةِ ، فى كتابهِ : « القانون » . وكان ابنُ سينا فى زمانهِ أباً وحيداً للطبِّ فى عصرهِ ، وعلَماً فريداً فيه ، لا يَلْحَقُ أحدٌ له بِغبَار .

## دعوة إلى القاهرة

كانت القاهرة ، آنذاك ، هى عاصمةُ الدولةِ الأيّوبِيّةِ ، وكان الكامل محمد هو مَلِك هذه الدولة . وشاءَ الملكُ الكامل أنْ يُعَزِّزَ البيمارستانَ الناصرِىّ الذى بَناهُ يوما صلاح الدين الأيوبّى بالقاهرة ، بصَفْوةٍ من الأطباءِ فى دمشقِ . فكتبَ إلى واليه عليْها ، ليوفِدَ إليه صفوةً من خيرةِ أطباءِ البيمارستان النّورِى بدمشق ، وأشارَ الدّخْوار على والى دمشق بإيفادِ عددٍ من تلاميذهِ إلى مصر ، كان من بينهُم : عبدُ اللطيف المهندس ، ويوسُف السبتّى ، وابن أبى أُصَيْبِعةَ . وفى طليعتِهم كان عالم الطبّ ابن النفيس . وعجّل الكّل بالرحيلِ إلى القاهرة ، فلمْ يجِد ابنُ النفيس وقْتاً لوداعِ أهلهِ فى القَرَشّية ، ولا رِفاقِه فى حِمص .

ooo

كان الطبّ فى مصر ، عندما وصَلَ ابنُ النفيس إلى القاهرة ، لا يقلّ مستواه عن مُستوى الطبّ فى بيمارستانات العواصم الإسلاميةِ الأخرى . بل إن مستوى الطبِّ فى مصر كان يزيدُ عليها جميعاً ، منذُ عَصْر الرشيد . ولقد عرفت مصر فى ظلِّ الاسلام طائفةً من الأطباءِ العظامِ على مرّ العصور .

كانَ من بينهم : « ابنُ رضَوان » ، و « ابنُ مَطروح » و « ابنُ زَيْرَك » ، و « سَعيدُ بن تُوفِيل » ، و « ابنُ رَحْمون » ، و « الشيخُ السَّدِيد » ، و « ابنُ مَيْمون » ، و « ابنُ أبى حُلَيْقَة » ، و « ابنُ البيطَار » .

وكانت القاهرةُ قد عرفَتْ عدداً من البيمارستانات : بيمارستان القَيْصرِيّة ، الذى انشأَه الملِكُ البيزَنطِى « باسِيلْيوس الأكبر » قبلَ الهجرةِ المحمديةِ بقرنٍ ونصفِ قرنٍ ، وكان مقرّ هذا البيمارستان بحارةِ القناديلِ بفسطاط القاهرةِ ( مصر القديمة الآن ) . وبيمارستانُ حيِّ المعافِر الذى شُيِّدَ فى عهدِ الخليفةِ العباسى المتوكّلِ على الله . والبيمارستان الأعلى الذى أنشأَهُ ابن طولُون فى حىّ العَسْكر . والبيمارستانُ الأسفل الذى أنشأَهُ كافُورُ الإخشيدى . والبيمارستان الناصرِىّ الذى أنشأَهُ صلاحُ الدينِ الأيوبى ، وهو البيمارستانُ الذى جاء ابن النَّفِيس إليه ، ليكون واحداً من أطبائهِ العِظام .

كان البيمارستانُ الناصرِىّ يَشْغَلُ جُزءاً من قصرٍ كانَ الفاطِميُّون قد بَنوه ، ويقُال إنَّ به طِلَّسماً يَحمِيه من تَسلُّلِ النملِ إليه . وكان بابُ هذا البيمارستان يَفْتَحُ على حارة ، كانت تُعْرف آنذاك باسمِ : « حارةُ قائد القواد » وتُعَرفُ هذه الحارة الآن باسم : « حارة المُلُوخِيّة » .

ودخل ابنُ النفيس مع رفاقهِ من أطباءِ دمشق إلى البيمارستانِ الناصرِىّ ، فى سنةِ ستمائةٍ وثلاثة وثلاثين هجرية ، ألف ومائتين وثمانِى وثلاثين ميلادية ، وله من العمر ثمانِى وعشرونَ سنة . ورأى البيمارستان الناصرِىّ مُمَاثلا فى نظامهِ للبيمارستان النُورى : الأقسام ، والقاعات ، والمكتبة ، والصيْدلية ، وإيوان الدرْس الذى يَلتقِى فيه أطباء البيمارستان عصرَ كلّ يوم . ويجتمعُ فيه طلابُ الطبِّ بأساتذتهم بعدَ كلّ غُرُوبٍ .

o o o

فى كلّ يوم ، كان ابنُ النفِيس ، الشابّ النحيفُ الطويل ، يمشى بهدوءٍ وتُؤدَةٍ ، كشيخٍ جليلٍ وقور ، فيُشيُر إليه أهلُ الحىّ بهيْبة واحترام . ويتَجوَّل فى الحوارىِ بين منزلهِ والبيمارستان بجوارِ قصرِ الفاطميين .

وفى كلّ يوم ، كانَ ابنُ النَفِيس يذهبُ إلى المدرسةِ المسْرورِيّة ، ليدرسُ الفقه الشافعى ، العلمَ الذى لم ينسَ تفَوقّه فيه ، مثل تفوُّقِه فى علمِ الطبّ .

وفى يومِ الجمعة ، من كلٍّ أسبوع ، كان ابنُ النَفِيس يستمتعُ بإجازتهِ الأسبوعية ، يتجهُ غرباً من حىّ الأزهر ، إلى

نهرِ النيل ، ويسيرُ مع مجراه إلى فَمِّ الخليج ، ثم يعودُ على الشاطىء من فم الخليج إلى شارع سعد الدين فشارِع نُوبار ، فشارع الشيخ رَيْحان ، ثم ينعطفُ مع شاطِىء النيلِ شرقاً إلى عمادِ الدينِ . وكان هذا الشارِعِ آنذاك هو نهايةُ القاهرة ، عندَ قريةِ « أُمّ دُنَيْن » ، التى يشغَلُ جانباً منها الآن جامِعُ أولادُ عنان .

وعند ثَغْرِ النيل ، ميناءِ القاهرة « فى ميدانِ رمسيس الآن » كان ابنُ النَفِيس يتوقَّفُ ، ويرقُبُ ما حولَهُ من مصانِعَ وترْسَانات أنشأَ فيها المعزّ لدين الله الفاطمى أساطيله البحرية ، وكذلك فعلَ من بعدهِ صلاحُ الدين الأيوبى ، للقضاءِ على أساطيلِ الصليبيين فى البحرِ الأبيض المتوسط .

وكان ابنُ النَفِيس يَرقُبُ من مكانهِ جزيرةً جديدةً ، لاتزال تتكوَّن فى عرضِ النيل ، حَول مركبٍ غَرِقَ فى الثَغْرِ ، هى « جزيرةُ الفيل » التى عُرِفَت فيما بعد ، باسمِ : « جزيرةِ بدران » ، فى عَهْدِ الأمراءِ المماليك ، ثم فى عَهْدِ الأتراك العثمانيين . وقد صارَتْ هذه الجزيرةُ فى هذين العهدين روضةً للتنزّه ، وميداناً للرمايةِ والرياضةِ ، ثم تكاثرت فيها المسَاكن ، وتُعَرف الآن بحيِّ شُبرا .

وتمرّ الأيام ، وابنُ النَفِيس ، يتجولُ في نهارِ كلِّ يومِ جُمعة ، فى مدينةٍ دائِبَةِ الحركةِ والنشاطِ والتَّوسُّعِ والبناء .



يرى قلعةَ الجبل ، وسُورَ القاهرة ، والمدارسَ المذْهبية التى أنشأها الأيّوبِيُّون لدرَاسة فقهِ السُّنة ، لِمُنَاهَضَةِ المذهبِ الشِّيعِيِّ فى الأزهر . ويتملّى عن كثَبٍ العمائرَ الأيوبية ، ويجلسُ تحت قُبَّةِ جامع الإمام الشافعى ، يرقبُ فى دائرتِها ، من أسفل ، روْعةَ زخرفةِ العمارةِ الإسلاميةِ .

وكانَ ابنُ النفِيس يشهدُ بين عامٍ وآخر الجيوشَ تُعَدُّ للسّفَر ، أو تعودُ منه ، تدفعُ غاراتِ الصليبيين على الشام ، أو على دِمياط ، وغاراتِ ملكِ النوبةِ على أسوان ، وتَكْسِرُ شوكَةَ التتارِ فى عَيْن جالوت ، وفى حَلَب . ويفَرحُ مع أهلِ مصرَ بالنصرِ ، ويحزَنُ معهم للهزيمة ، تَلحقُ بجَيشٍ من جيوشِ المسلمين .

ولقد حزِن ابنُ النفِيس حُزناً شَديداً ، وعمرُه ستٌّ وأربعُون سنة ، عندما عَلم بهجوم التّتر بقيادة هولاكو على بَغداد ، وهدْمِهم لها ، وأحزَنَتْهُ هذه السنواتُ المُلطَّخَةُ بالدَّمِ التى كَتَبتْها شجرةُ الدُّر ، وآلَمَهُ الحزنُ وأوجَعَه .

كان ابنُ النفِيس قد عاشَ فى مصر تسعاً وثلاثين سنة ، حين نزلَ وباءٌ بأرضِ مصر ، عامَ ستمائةٍ وواحدٍ وسبعين هجرية ، ألفٍ ومائتين واثنيْن وسبعينَ ميلادية . وكان ابنُ النفِيس قد بَلغَ من العمرِ اثنتَيْن وستّين سنة .



# ابنُ النفيس يكافح الوباء

ووقفَ الشيخُ الطبيبُ ابن النفيس مع أطباءِ مصر ، يقُود الحملةَ لمكافحةِ وباءٍ راحَ يَفْتِك بالنساءِ والأطفالِ والرجالِ ، مدةَ سِتّةِ أشهرٍ ، حتى انتصرَ عليه فى النهاية ، فنالَ بانتصاره هذَا مكانةً مرموقةً لدَى حُكّامِ مصرَ ، وشعبِ مصرَ . وتَدفقت عليه الأموالُ والهدايا ، فقد قامَ بأكبرِ دورٍ فى مكافحةِ الوباءِ ، ووضع عقلَه وعلمهَ فى سبيلِ هذه الغايةِ . وتوَّجهُ أهلُ مصرُ بلَقَبِ : « المصرِىّ » ، فصار يعرف باسم : أبو العلاء « علاء الدين علىّ بنُ أبىِ الحَزْم القَرَشى المصرِىّ » . وفُتِحَتْ له كنوزُ الدنيا ، كما فُتحَتْ له من قبل أبوابُ العِلم ، فى اللغةِ ، والفقهِ ، والطبِّ .

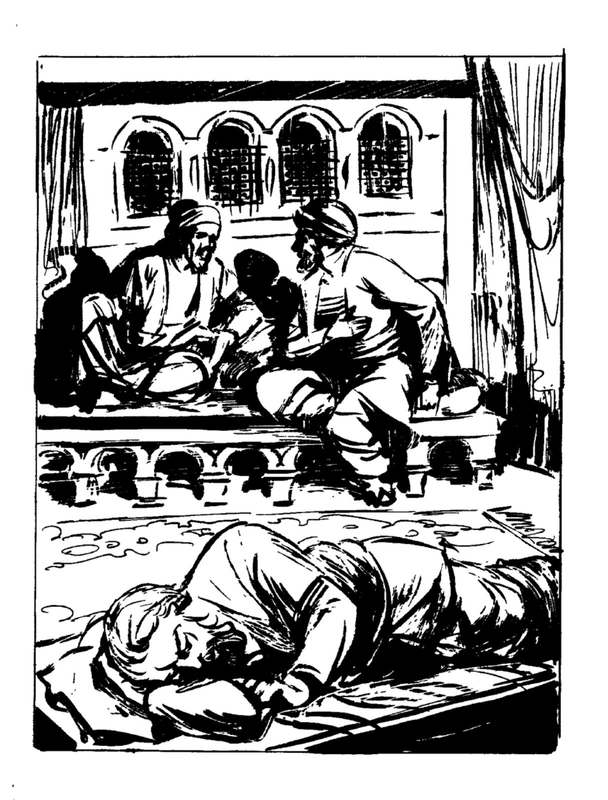
# دار للجميع

واختارَ ابنُ النفيس جزيرةَ الروضة ، وبَنى فيها بيتاً واسعاً فخماً كالقصر ، وفَرشَه بالرخام ، وزوَّد إيوانَه المرَخّم بمكتبةٍ عامرةٍ ، وبمجلسٍ شرقيٍّ ، مفروشٍ بالبُسط الإيرانِية ، والوسائِدِ والطنافِسِ . وصار يلقَى فى هذا الإيوان ، مساء كلِّ يوم ، أهلَ العلمِ من الفقهاءِ واللغويّين والأطباءِ ، وأهلَ السلطانِ من الأمراءِ ، والأعيان . وكانت دارُه من السَّعَةِ والخَيْر ، بحيثُ يأكلُ فيها الجميع ، ويسْهَرُون ، ويسمُرُون ، ويبيتُ عنده فيها من يشاء ، حين يطولُ السهر ، ويمتَدّ الحوارُ والنقاشُ . وكان ابنُ النفّيس لا يزالُ يعيشُ أعزب ، بلازوجٍ ، ولا ولدٍ . وكان يقولُ لمن يُعاتِبُهُ على عَدمِ زواجِه :

ـ العلم والزواج لايجتمعان .

O O O

ذاتَ ليلةٍ ، جلسَ ابنُ النفيس فى دارهِ ، إثْرَ فراغِه من صلاةِ العشاء ، مع القاضىِ ابن واصل ، والمهذّب بنِ أبى حُلَيْقَة ، رئيسِ الأطباء . وشَعَرَ المهذّب بحاجتِه إلى النّوم ، وقد طال السّهَر ، فنامَ فى جانِبٍ من الإيوان . وراحَ ابنُ



النفيس وابنُ واصلٍ يتحاوَران ، ويتنقّلان في حوارهما من علْمٍ إلى عِلْم ، وكان ابنُ النفيس في حواره هادئاً ، بينما كانَ القاضي ابن واصل عاليَ الصوت ، يحتَدُّ في النقاشِ ، وتَحْمَرُّ عيناهُ ، وتنتفِخُ رقبتُه ، وظلّا على هذه الحال إلى أنْ أسفَرَ الصّباح ، واستيقظ الطبيبُ المهذّب ابنُ أبي خُلَيْقَة من نومِه ، وأقرّ ابنُ واصلٍ لابنِ النفيس بأنهُ خزائنُ علمٍ لا تنْفَد ، وأنه ، لثقتِهِ بعلمِهِ لا يغْضَبُ ، ولا يعلُو له صوْتٌ .

ooo

وتأتي أيامٌ على ابنِ النفيس لا يُدْعى فيها إلى البيمارستانِ الناصريّ ، فيُفْرِغَ نفسَهُ ويَوْمَه للتأليف ، آناً في عُلومِ اللغة ، وآناً في علومِ الدين ، وآناً في الطب . وكانَ وهو يؤلِّفُ يجلِسُ على مِنضَدةٍ واطِئة ، ووجْهُهُ إلى الحائِط ، وقد بَرَىَ له خادِمُه عشراتٍ من الأقلام ، ويأخُذُ ابنُ النفِيس في الكتابة ، ويُلقي بَيْنَ بُرْهَةٍ وأخرى ، جانباً ، وكما اتّفق بما امتلأ تحت يدِهِ من صفحاتٍ ، أويُلقي بقلمٍ جفيت بَريتُه ، ويتناوَلُ غَيره . فقد كانَ وهو يؤلِّف يتدفّقُ في كتابتِهِ من الذّاكرة ، ويتدافَعُ كالسَّيْل في الكتابةِ ليلحقَ بخواطرِهِ وأفكارِه . ولشِدّة تركيزه فيما يكتبُ ينسَى أن يشْربَ قدَحَ الماءِ حينَ يظمَأ ، وينسَى أن يأكُلَ والطعامُ معدٌّ له ، ينسَى أنّه

ظمآن ، وأنّه جائع . وخادمُه وجاريتُه جالسانِ بالقُرْبِ منه ، يَنْظُرانِ إليه بإشفاقٍ ، دون أن يجرُؤَ أحدُهُما على قَطْعِ خواطِرِه . أو شَغْلِهِ عن عملِهِ .

ويتعبُ ابنُ النفيس من الكتابة ، وتُجْهَدُ عضلاتُ كفِّه ، فينْهَضُ من مجلسِهِ ، ويغادرُ داره ، ويمشي مسرعاً ، وخواطرهُ لا تزالُ في شُغْلٍ شاغِلٍ ، حتى يصلَ إلى بابِ الزُّهومة ، يتبعُه خادمُهُ في صمت ، حاملاً الأوراقَ والأقْلامَ المبريّة . ويدخُل ابنُ النفِّيس الحمّام ليَغْتَسِلَ ، وهو لا يزالُ يُفكِّر . ويستسلمُ لغاسِلِه في الحمّامِ ، وعقلُه لا يزالُ يعمَل . ويُفَاجأ بالرغبةِ في الكتابةِ ، وتسجيلِ أفكاره ، فيُغادِرُ حَوْض الحمّام ، ويجلسُ على أريكةٍ من الرخامِ ، ويقدِّمُ له خادمُه الورقَ والأقلام ، ويأخُذُ في كتابةِ مقالةٍ في نَبْضِ القلب ، ولا يَرفَعُ يَدَه عنها إلا عندما يفرغُ من مقالتِه . عندئذ فقط ، يعودُ لينزلَ في حوضِ الحمّامِ ، ويستسلِمَ من جديدٍ لغاسلِهِ . ثم يعودُ إلى دارِهِ مُستَريحَ الجَسدِ والعَقْلِ ، وينامُ ساعة ، قَبْلَ أن يتوجَّهَ إلى المدرسةِ المسْرورِية ، أو إلى البيمارستان الناصري .

# أمام دكان عطار

فى الطريق ، قد يحلو لابنِ النفّيسِ أن يجلسَ أمامَ دكُان صديقهِ « العطارِ الشّرابى » ، على أريكةٍ خشبية . ويتنبهُ إليهِ بعضُ المارة ، فيتوقفُون عندهُ ، ويسْتشيرونه فى دواءٍ لما بِهم من مرض . هذا يشكُو من القُرْحَةِ ، وهذا من البَرْد ، وذاكَ من الإسهالِ . فيصف البَليِلَةَ لمَن يشكوُ من القُرْحةِ ، واللحمَ المطهوّ بالتوابلِ لمن يشكو من البردِ ، والخرُّوب لمن يشكُو من الإسهالِ . فيضيقُ به صديقهُ العطار ، لأنه يعوقُ رزقَه ، ويصيحُ به ، وابن النفّيس يضحك :

ـ إذا أردْتَ يا ابن النفيس أن تصِفَ هذه الوَصْفات ، فاقعُدْ عندَ دُكَان لحّام ( جزّار ) . أما إذا جَلَسْتَ عندِى فلا تصِفْ للمرضى سوى السكر ، والشّراب ، والأدْوِية . فهذه هِيَ بضَاعتى .

وذاتَ يوم ، قَدِم أبوُ الثناءِ الحلبُى الكاتبُ إلى ابن النفّيس وهو جالسٌ عندَ صديقهِ العطار ، وسألَهُ عن علاجٍ لوَرَم فى يده . وفحصَهُ ابن النفيس ، ثُم قالَ له فى تَواضُعٍ :

ـ أَعِرفُ صِفَةَ الوَرَمِ ، وأَعرِفُ أسبابه ، ولكننّى لا أعرِفُ علاجاً له ، فاسْألْ غيرِى .




ويغضَبُ العـطارُ مـرةً أخرى ، لأنَّ ابن النفيس لم يَصِفْ له دواءٍ مما يبيعهُ فى دُكانِه ، ويعجَبُ لأن صاحبهَ على شُهرتهِ فى الطبِ ، وعِلْمِهِ به ، قليلَ الخِبْرَةِ بالمداواةِ والعلاجِ . ويعجب لأن صاحبَه لا يخجَلُ من التصريحِ بأنهُ لا يعَـرِفُ . فيقولُ لـه ابنُ النفيسِ :

ـ لقد شَغَلْتُ نَفسى بعلْمِ الطبِّ فى ذاتِه ، وحسْبِى بين

زملائى الأطباءِ حسنُ التشخيصِ للمرض ، وبيانُ أسبابِهِ ، وأعراضِه . وعليهم هُمْ أن يصِفُوا له العلاجَ .

ooo

في البيمارستان ، وفى دارِه بالروضةِ ، وفى الحمّامِ ، وفى نُزْهاتهِ الخَلَوِيّة بجزيرةِ بَدْرَان ، وفى قاربٍ يركبُهُ فى مَجْرَى النيل ، كان ابنُ النفيس يُفرِغُ قَلْبَهُ وعَقْلَهُ ، منذ وَطِئَتْ قدماه أرضَ القاهرةِ ، للتأليفِ والتصنيفِ ، من صدرِه ، ومن غير مُرَاجعةٍ . وهو علىَ ثِقَةٍ بذاكَرتِه ، وبما يَكْتُبَه ، ويقولُ لِمَن يلومُونَه على إفراطِه فى التأليف :

ـ لو لم أَكُنْ على ثِقَةٍ من أن تَصَانِيفى سَتَبْقَى بَعْدِى عشرةَ آلافِ سنة ، لم أَكْتُبْ فيها حَرْفاً واحداً .

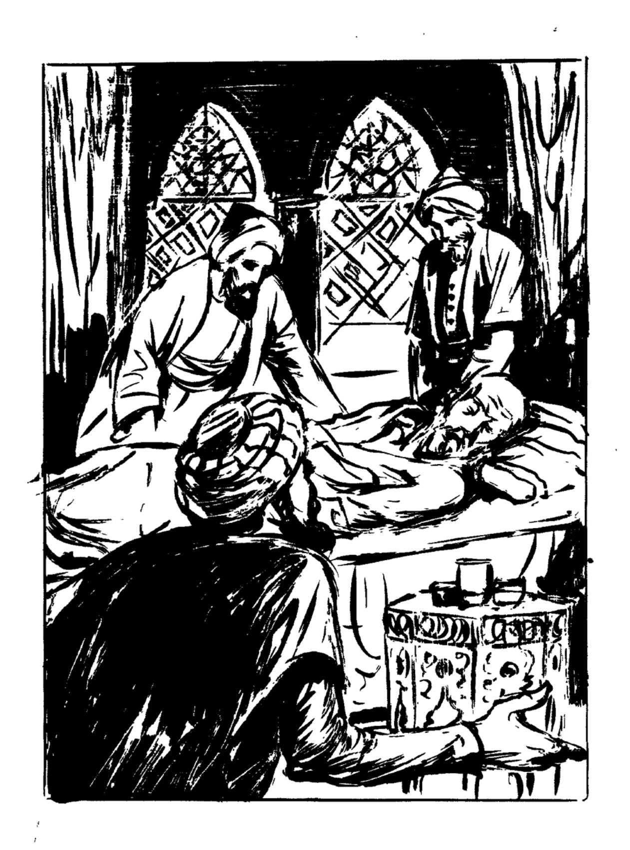
ومثلما كانَتْ ذاكرةُ ابنُ النفيس باهِرةً ، كانت قوتهُ العقليةُ النقدِيّة نادِرةً . انْتَقَدَ عالِمَ الطبِّ الإغْرِيقىَّ « جالينوس » ووَصَفَهُ بالعَجْزِ والإسهابِ . ولم يَكُنْ يَجْرؤُ فى زمانهِ على انتقادهِ سِوىَ قِلّةٍ من العلماءِ . وكان ابنُ النفيس مُحِقّاً فى انتقادهِ له ، وهو الذى وَضَعَ لمؤلفاتِه الشُّروحَ والمُخْتَصَرات .

وانتقدَ ابنُ النفيس بعضَ آراءِ ابن سينا فى الطبِّ . وكان مُحِقّا فى انتقادِه له ، فهو الذى بسَّط للأطباءِ كتابَه

« القانون » فى الطبّ ، ليكونَ فى مُتَناولِ دارسى هذا العِلم ، بل إنّه شرَحَه فى عشرينَ مجلداً .

ولم يعارِض أحدٌ من أطباءِ مصر انتقادَ ابن النفِيس لابن سِينا ، وجالينوس . فقَدْ كانوا يُجِلُّون عِلْمَه ، ويحترمُونَه ، ويقولُون : « إنَّ ابنَ النفِيسِ هو ابنُ سِينا الثانى » .

وطَمِحَ ابنُ النفِيس إلى تَجمِيعِ كلِّ ما وصلَ اليه الطبُّ فى زمانِهِ ، فى موْسوعةٍ طبيةٍ ، تُضَاهِى موسوعَة « الحاوى فى الطب » لأبِى بكر الرازى . فشرَعَ فى كتابةِ موسوعةٍ طبيةٍ بعنوان : « الشامل فى الطبِ » ، تقعُ فى ثلاثمائةِ جُزء ، لَم يُقدّرْ له أن يكتبَ منها سِوَى ثمانينَ جزءاً . ولم يُقدّرْ لنا أن يصِلَ إلينا منها سِوى فَقَرات . لكن ابنَ النفِيس وضعَ لهذا الكتاب وقبْلَ أن يُتِمَّه موُجزا ، سمّاه : « الموجَز فى الطبِ » وقد أصدرتْهُ المطابعُ حديثاً .



وعن المرضى ، المصابينَ بحالةِ انْسِكاب صَدِيدىّ ، فى الخِزَانةِ المتقدّمِة من العينِ عندما يتحركُون ، كتَب ابنُ النفّيس كتاباً بعنوان : « المهَذَّب » .

وعن غِذاءِ المرضى بأمراضٍ حادّة ، كتَب ابن النفِيس كتابا بعنوان : « المختارُ من الأغذية » .

○ ○ ○

لكن أهمّ كتابٍ ألفّه ابن النفِيس ، كان كتابهُ « شرح تشريحِ ابن سينا » . فبهذَا الكتابِ صارَ ابنُ النفِيس يُعدُّ مفخرةً من مفاخِرِ الطبِّ العربى .

فى الكتابِ الأول من « القانون » كان ابنُ سينا قد قدَّم عرضاً لتشريحِ العظامِ ، والعَضلاتِ ، والأعصاب ، والأوْعية .

وفى الكتابِ الثالِثِ من « القانون » كان ابنُ سِينا قد قدَّم عرضاً لتشرحِ كلّ جزءٍ من أجزاءِ الجسم ، وبيَّنَ وظائفه وأمراضَه ، ووضَع تشريحَ المخِّ مع أمراضِ الرأسِ ، وتشريحَ العيْن مع أمراضِ العَيْن ، وتشريحَ الأنْفِ مع أمراضِ الأنْفِ . . وهكذا .

ولم يُعجِب ابنُ النفِيس ما فعَلَه ابنُ سينا بالتشرِيح ،

فقد بعْثَر معلوماتِه فى أبواب متفرّقة ، فى جزْءيْن من كتابِه : « القانون » .

وقرّر ابن النفِيس أن يجعَلَ منِ التشرِيحِ عِلْما من علوم ِ الطبّ ، قائماً بذاتِه ، فراحَ يجَمعُ المعلوماتِ التى وردَت عن التشريحِ فى كتابِ « القانون » ، ويعلّقُ عليها ، حتى أنجَزَ كتاباً ضخماً يقع فى ثلاثمائةِ صفحة ، عنوانُه : « شَرْحُ تشريح ابن سينا » .

وفى هذَا الكتاب ، عارضَ ابنُ النفِيس فى تعليقاتِه طائفةً من معارفِ التشريحِ ، كان قد قالَ بها جالينوس ، وابنُ سينا .

وقدَّمَ ابنُ النفِيس لكتابِه هذا بمقدمةٍ ، يعُينُ بها الطبيب على إتقانِ العلم ِ بفنُّ التشريح ، وتحدَّث فى مقدمتِه هذه عن اختلافِ الأعضاءِ بين الحيوانات ، وعن فوائِدِ علم ِ التشريح ، وعن منافِع ِ الأعضِاء ، وعن ماهِيّةِ التشريح وآلاتِه .

وفى هذه المقدمة ، تحدَّث ابنُ النفِيس عن تشريحِ العظام ِ والمفاصِل ، وبيّن أنها يسيرة إذا أُجْرِى التشريحُ فى أجساد الموتى . . وعن تشريحِ القلب ، والشرايين ، والحِجاب ، والرئة ، وذَكَر أنّهُ لا يكون تشريحاً دقيقاً الا إذا حدَثَ فى الجسم ِ وهو حَىّ . . وعنْ تشريحِ العُروق الصِّغار

التى فى الجلدِ ، وبيّن عدَمَ فائدةِ التشريحِ لها ، إذا أُجْرِىَ التشريحُ فى أجسادِ من ماتوا بسببِ إسْهَالٍ أو نَزْفٍ ، ويُسْر هذا التشريحِ فيمنْ ماتوا بالخنْقِ ، وبعْدَ الموت مباشرةً ، لتجنب تجمُّدِ الدَّمِ فى العُروق .

ووصفَ ابنُ النفِيس جُثَثَ الموتى ، وهىَ فى مرحلةِ انحلال اللحم ، وظهورِ العخلَظِام والأربطةِ من تحتِ اللحم .

أليسَتْ هذه آراءُ طبيب ، لابُدّ وأن يكونَ قد مَارَسَ التشريحَ بيدهِ ؟

فهَلْ مارَسَ ابنُ النفِيس التشريحَ خِلسةً ، ووَقَعَ فى فِعْلِ أمرٍ محظورٍ فى زمانهِ ، فقد كانَتْ للجسمِ البشرِىِّ حُرمة فى الموتِ لا يجوزُ انتهاكُها ؟ !

ان ابن النفّيس كان يُردد دائما فى كتابِه هذا القَول : « والتشريحُ يُكذِّب هذا » ، وهو يُرد على ابن سينا .

# مكتشف الدورة الدموية الصغرى

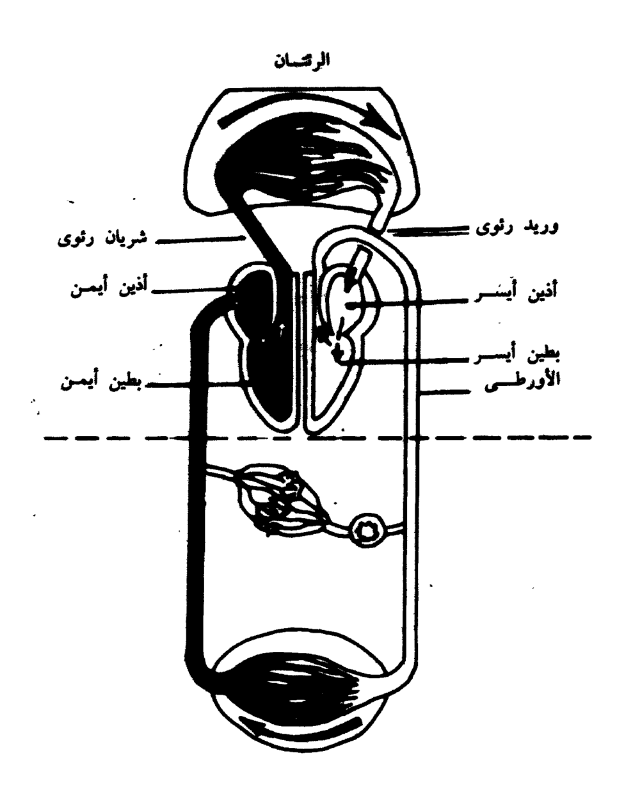
والجديدُ ، أهمُّ الجديد ، الذى قدّمه ابنُ النفيسِ فى شرحه لتشريحِ ابن سينا ، هو رأيُه فى دورةِ الدم ، أى حركةِ الدم فى دائرة ، وهى المعروفَةُ فى زمانِنا باسمِ : « الدورةُ الرِّئوية » .

كان الفراعِنةُ يعتقدُون أنَّ الدَّمَ ينتقِلُ من القلبِ إلى الجِسْمِ عن طريقِ الأوعيةِ الدمويةِ ، والقنواتِ ، والأوتارِ ، من خلالِ حركة النبْض .

وجاءَ جالينوس عالمُ الطبِّ الاغريقى ، وقالَ بتوزيعِ الدّم من القلبِ إلى الجسمِ ، فى حركةِ مدّ وجزرٍ ، وعَبْرَ الشرايين نفسِها .

وجاء أبُقراط عالمُ الطبِ الإغرِيقىّ ، وقال : إنَّ الكبدَ هو الأصلُ فى الدّمِ ، وفى حركتِه ، ويصلُ إليه من الأمْعَاء عن طريق الوريدِ البابى ، ثم ينتقلُ عن طريقِ الوريدِ الأجْوَف ، إلى البُطَيْن الأيمْنَ ، ومنه إلى بقيةِ الجسمِ عن طريقِ الأوردةِ ، وفى حركةِ مدٍّ وجزرٍ متصلةٍ ، ليسَ لها دورةٌ .

وجاءَ أطباءُ مدرسةِ الإسكندريةِ ، فعادُوا إلى التعاليمِ الطبِّيةِ المصريةِ القديمةِ .




**الدورة الدموية الصغرى ( الدورة الرئوية )**
**اكتشفها « ابن النفيس » قبل « وليم هارفى »**

وأخذَ ابنُ سِينا بنظريةِ عالمِ الطبِّ الإغريقىِ جالِينوس فِى دَوْرَةِ الدمِ .

وتقدَّمَ ابنُ النفِيس فى شرحِه لتشريحِ ابن سينا ، فَصَحَّحَ هذه الآراء .

قالَ إنَّ عدَدَ تجاوِيفِ القلبِ اثنان ، وليسَ ثلاثةَ ، كما كانَ يقولُ ابنُ سِينا وَمَنْ سَبقَهُ .

وقال ِان اتجاهَ الدّمِ يمرُّ من التجويفِ الأيمنِ إلى الرئةِ ، ويخالِطُ الهواءَ بها ، ثُم يعُودُ من الرئةِ عن طريقِ الشريانِ الوريدىِ ( الوريدُ الرئوى ) إلى التَجويفِ الأَيْسَر بالقلبِ ، ومنه يُوزَّعُ على سائرِ الجسمِ .

وبهذا الرأى قدَّم ابنُ النفِيس لعلمِ الطبِ نظريةً جديدةً تقولُ بدورةِ للدّمِ بينَ القلبِ والرئةِ ، وبينَ الرئةِ والقلبِ ، فوَضَعَ بذلِكَ أساسَ « الدورة الدموية الصغرى » أو « الدورة الرئوية » .

ولو تقَدم ابنُ النفِيس خطوةً برأيِهِ هذا لَقال أيضاً بالدورةِ الدمويةِ الكبرى فى سائِرِ الجسمِ ، من القلب إلى الجسم ثُم من الجسمِ إلى القلبِ ثُم من القلبِ إلى الرئةِ ، ثُم من الرئةِ إلى القلبِ ، ثم من القلبِ إلى الجسمِ . . وهكذا .

# هل اسْتَفَادَ عُلماء أوربا
# من نظرية ابن النفيس ؟

كان القرنُ الذى عاشَ فيهِ ابنُ النفيس ، عالِمُ الطبِّ العربى ، ومكتَشِفُ الدورةِ الدمويةِ الصغرىَ ، لأوّل مرة ، هو القرنُ الثالث عشر الميلادى ( قبل سبعمائة سنة ) .

وفى هذَا القرن كانتَ الجامعاتُ الغربيةُ آخذةً فى النشّوء والظهور ، وكانت تتطورُ عِلْمياً ببطءٍ . وفى مُقدمَتِها « جامعة بادْوَا » فى مدينة « بادْوَا » الإيطالية . وقد جَاهَدْت هذه الجامعة إلى أواخِرِ القرنِ الخامِسِ عشر الميلادى ، لدراسةِ علْمِ التشريح الوصفِىّ ، الذى شُغِل به كلٌّ من ابن سينا ، وابن النفِيس ، عالِمِىْ الطبِّ المسلِمَيْن .

وإلى نهاية القرن الخامِسِ عشر الميلادى ، لم يَكُنْ أحدٌ من علماءِ جامعة « بادْوَا » قد قالَ بالدورةِ الدمويةِ الصّغرىَ ، بين القلْبِ والرئةِ ، وبالعكسِ ، أو اهتدَى إليها .

لكن علماءَ جامعة « بادْوَا » بدأُوا يتحَدَثُون عن الدورةِ الدمويةِ الصغرى ، مع منتَصفِ القرنِ السادس عشر الميلادى ، فى مَطالِعِ عصرِ النهَضْةِ الأوربيّة .

فهل كانَ لابنِ النفيس أثرٌ فى وَصْفِ علماءِ أوربا لدورةِ الدمويةِ الصّغرىَ ، فى إيطاليا ، ثم من بعدِها فى انجلترا ، فى عَصْرِ النّهضةِ ؟

فى منتصفِ القرنِ السادسِ عشر الميلادىَ ، نشَرَ الطبيبُ الإيطالى « إلباجو » ، ترجمةً باللغةِ اللاتينية ، لأجزاء كثيرةٍ من كتابِ ابن النفيسِ « شرحُ تشَرْيحِ ابنِ سينا » . وكان هذا الطبيبُ قد عاشَ بِضْعَ سنَواتٍ فى الشَرْقِ الإسْلامِى .

ومضت ستّ سنوات على نَشْرِ هذه الترجمة ، ثم ظهرَتْ ثلاثَةُ مؤلفات لثلاثةِ من علماءِ الطب فى جامعةِ « بادْوَا » ، تحدّثَتْ كلهاً عن « الدورةِ الدمويةِ الصغرى » . وهؤلاء العلماء الأطباء هم : « ميجيل سيرفتوس » الإسبانىّ الأصل ، و « ريالدُوا كولُومبو » الإيطالى ، و « أندرِيّا سيزالْبيتو » الإيطالى . وكان « أندريّا » هذا هو أولُ من استعملَ لفظ « دورة » ، فى حديثهِ عن الدورةِ الدمويةِ الصّغرىَ .

ثُم . . جاءَ « وِلْيمَ هارفىِ » الإنجليزى ، فى القرنِ السابع عشر الميلادى ، وكان قد تخرَّج من جامعةِ « بادْوَا » فوصَفَ الدورةَ الدمويةَ الكامِلةَ ( الصُّغرى ، والكُبرى ) فيِ كتابِهِ : « دراساتٌ تشريحِية تحليليّة لحركةِ القلبِ والدمِ فى

الحيوانِ . ولم يشِر « هارفى » فى كتابه هذا بحرف إلى مصادرِه العربيّة ، أو الإيطالية .

وظنَّ علماءُ الطبِّ فى العالم كلّه طولَ القرون التالية ، أن « وليم هارفى » الإنجليزى هو مكتشفُ الدورةِ الدمويةِ الصغَرى ، وغفلِوا عن اكتشافِ ابن النفيس لها لأول مرة ، وتناسوا استفادة علماءِ جامعة بادْوَا السابقِين ، الذين قالوًا بها أيضا ، بعد اكتشافِ ابنِ النفِيس لها .

ثم فوجُئت الأوسَاطُ العلميةُ فى أرجاءِ العالَمِ بطبيبٍ مصرىّ عَالِم ، هو الدكتور : « مُحيى الدين التَّطاوى » يُعلن فى العِقْد الثالثِ من القرنِ العشرين ، فى أثناءِ دراستهِ للطبِّ فى كلية طبِّ برلين ، عن عثورهِ على مخطُوط « شرحُ تشريحِ ابن سينا » لابن النفيس ، ويتقدّم به عام ( ١٩٢٤ ) فى رسالةٍ جامعية لنيلِ درجةِ الدكتوراه من جامعةِ « فرايبورج » بألمانيا ، موضوعُها « الدورةُ الدمويةُ تبَعاً للقَرَشّى » ، وفيها يقولُ : إن ابنَ النَّفِيس هو المكتشفُ الأوّلُ للدورةِ الدمويةِ الصغرىَ فى القرنِ الثالث عشر ، أى قبل « هارفى » بأربعمائةِ سنةٍ .

وذُهِل أساتِذَةُ التطاوى والمُشرِفُون عليه ، ولجَهْلِهِم باللغة العربية التى كُتِبَ بها مخَطُوطُ ابنُ النفيس لم يصَدّقُوه ، وأرسلوا بنسخةٍ من رسالتهِ إلى الدكتور « مايرهُوف » الطبيبِ

المستشرقِ الألمانى ، وكان وَقتَها مقيماً بالقاهرةِ وطلَبوُا رأيَه فى هذه الرسالة .

ولَمْ يكَدْ مايرهُوف يَطّلِعُ عليها ، وعلى المَخطُوطِ المفقودِ لابن النفِيس ، حتى كتبَ إلى أساتذةِ التطاوِى والمشرفِين عليه ، يؤيدّ صحةَ المعلوماتِ التى جاءتْ فى رِسَالتِه . وطيَّر مايرهوف الخَبَر إلى المؤرِّخ « جورج سارتون » فَنَشَرهُ فى الجُزءِ الأخيرِ من مؤلفِهِ الضَخمْ فى تاريخ العُلوم . وراحَ مايرهُوف يَبْحَثُ فى مكتباتِ العالمِ عن مخطوطاتٍ أخرَى لابن النفِيس ، وَينْشُر عدداً من المقالاتِ عنه . فعادَ نَجْمُ ابن النفِيس للظهورِ ، بعْدَ أن خَبَا ضَوؤُه سبْعَةَ قرون ، كواحدٍ من العبَاقرةِ المكتشَفِين العِظام .

## ابن النفيس ينشىء بيمارستانا

وكان ابنِ النفيس قد بَلَغَ من العمرِ ، أربعاً وسبعينَ سنة ، حين كلفَهُ السلطانُ قَلاووُن ، مؤَسِّسُ دَوْلَةِ المماليك البُرجية ، ببناءِ بيمارستانٍ جديد بالقاهرةِ .

ونَهِضَ ابن النفِيس بالمهمةِ التى كُلفَ بها ، وأشرفَ طبِّياً على إنشاءِ البيمارستان : الأقسام ، والقاعات ،

والصيدلية ، والمكتبة ، والإيوان ، والغُرف الخاصة بالأطباء ، وأنجزَ مُهِمَّتَهُ فى ثمانيةِ أشهرٍ فقط .

وعيَّنَ السلطانُ قَلاوون ابن النفيس رئيساً لهذا البيمارستان ، وأطلَقَ عليه اسم : « البيمارستان المنْصُوريّ » .

# وداعٌ . . فى العام الأخير

فى القاهرةِ ، عاشَ ابنُ النفِيس ستّا وخَمسِينَ سنة ، إلى أن بَلَغَ من العمرِ ثمانى وسبعينَ سنة . وشَهِدَ خلالَ عمرِه بمصر ، أواخرَ الدولةِ الأيوبية ، ودولة المماليكِ البحريةِ من بدايتِها إلى نهايتِها ، وقيامَ دولةِ المماليك البُرْجية ، التى أسَّسَها السُلْطَان قَلاووُن وعَاشَ فى ظلٍّ هذه الدولِ الانتصاراتِ والهزائمَ ، وأمْجَادَ شَعْبٍ وانتكاساتِه .

وفى العامِ الأخير ، كان ابنُ النفِيس يَسيرُ فى شوارعِ القاهرةِ وحواريها سيْرَ مودّع . يُشَاهِدُ رَوْعَةَ عمائرِ الأيوبيين ، والمماليك التى أُقيمَتْ بالعَسْفِ والاستِبْدَادِ ، والدسائِسِ والمَظَالِمِ ، ويتَملىَّ جمالَ المآذِنِ المُزَخْرَفَةِ الشَاهقةِ ، تَعْلُو جِبَاهَ المساجِدِ المَمْلوكيةِ ، من عَهد بيبَرسْ إلى عَهدِ قَلاوون ، وواجهاتِ المَسَاجِدِ الزاخرة بالطُّنُفِ ، والتّيجانِ ،

وألوانِ الزَخْرَفةِ الهَندسِيَةِ ، وقِبَابِهَا الكبيرةِ والصغيرةِ التى تَعلُو مَدَاخِلَ المَسَاجد والمحارِيب ، وأسْقُفهَا المطليّة بماءِ الذهبِ .

ويتوجَّهُ ابنُ النفِيس إلى الجامعِ الكبيرِ بالحسُيْنيةَ ، ويَشْهَدُ المماليكَ وهُمْ يَتَسابقُون فى لعبةِ « القَبَق » يحاولُون واحداً بَعْد آخر أنِ يصُيبُوا بِسهَامِهم قفصاً من ذَهَبٍ خَالص ، به حمامةٌ وديعةٌ فى أعلَى عَمُودٍ مُرتَفِع ، وهم يَرْكُضُون على خيولِهم ، والمتَسابِق الذى يخَترِقُ سَهْمُهُ القَفَص ، يَنْفَتحُ بابُهُ ، وتَفرُّ منه الحمامةُ طائرةً فى الفضاءِ الفسيحِ ، يُكَافَأ كَرَامٍ مَاهرٍ بالقَفَصِ الذَهبىِّ شَاهِداً على مَهَارَتِه .

ويعَودَ ابنُ النفِيس إلى دارهِ ، وينقِّل كفَّهُ بيَن أربعةَ عشرَ كتاباً ألفّها فى الطبِّ ، وبينَ كتبٍ أخرى له ألفها : فى النّحو ، والمنَطِق ، والفِقِـه ، والسيرةِ ، والحَـدِيثِ ، والفَلْسَفَةِ .

ومع الليل ، يَجلِسُ ابنُ النفيس فى ضَوْءِ مِشْكَاةٍ ، لِيقَرأَ فى كتابٍ له بعنوانٍ عجيب هو : « فَاضِلُ بن نَاطِقٌ » . وكانَ ابنُ النفِيس قد ألفّه ، لِيُعَارِضَ به آراءَ فلسفيّة لابن سِينا ، فى كِتابِه : « حىّ بن يقظان » مُعَارَضةً فِقْهِيةً .



# الوصيّة

ويضعُ ابنُ النفيس كتابه ، ويخُالِجُهُ شعُورٌ بالنهاية ، فيتناولُ قلَماً وورَقاً ، ليكتُبَ وصيّتَهُ . ويوُصى فى وصيّته بمالٍ لجاريتهِ وخادمهِ ، ويَهبُ ما بقِىَ من مالهِ الوفير للبيمارستان المنصورِىّ الجديـد ، كما يـوُصِى لهذا البيمارستان ببيتهِ ، وبمكتَبَتهِ ، وكان اليومُ يوْم أَحَد .

كان ابنُ النفيسِ يشعُرُ بالضَعفِ ، فحَملَ نفسَهُ حملاً من مجلِسهِ ، وفى يدهِ وصيته ، ومشَى بوَهنٍ إلى أن وَصَلَ غرفةَ نَومِه ، وتمدّد على سَريرِهِ المتواضع ، ووضَعَ وصيتَهُ تَحتَ وِسادتهِ .

وفى اليومِ السادس ، مُنذ مُلازمتهِ لفِراشِه ، وكان يومَ جُمعة ، أسْرَع الخادِمُ فى ظلامِ الليل ، يُخْبِرُ عَدداً من الأطباء بمرضِ سيدهِ مرضَاً شديداً . فأسرعُوا إليه يحاوِلون تطبيبَهُ ومُدَاواتَه .

وأيقَنوا ، بَعد فَحْصِه ، أنهُ فى يَوْمه الأخير .

وأشارَ أَحدُهم عليه بتَنَاولِ شىءٍ من الخمرِ ، زَعَمَ له أَن فيهِ بُرْءاً من عِلتِهِ . فقال له ابنُ النفيس مُبتَسِماً بوهَن وضَعْف :

ـ لا . لا ألقى الله تعالى . وفى أحشَائِى شىءٌ من الخمرِ .

وعند السَّحَر ، فى يومِ الجُمعة ، بعثَ ابنُ النفِيس بوَصّيتهِ للسلطانِ قَلاوون ، وأغمَضَ عَيْنَيْهِ إلى الأبدِ ، فى اليوم الحادى والعِشْرين من شهرِ ذى القعدة ، فى العامِ


شرح
تشريح ابن سينا
الموجز في الطب
فاضل بن ناطق

السابعِ والستينَ وستمائةٍ للهجرة ، الثامِن والثمانينَ ومائتينِ بعد الألْفِ الأولى للميلاد .

وفى الصباحِ ، هبَّ العلماءُ والأعيان ، وذهبُوا إلى بيته ، وحَمَلُوهُ على أكتافِهم ، وصلوا عليه فى المسَجدِ ، ثُم ساروا به ، يَتَقَدَمُهُم السلطانُ قَلاوون ، حتى وسَّدوه الثَّرىَ .



مطابع الأهرام التجارية القاهرة - مصر

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٥ / ٥٨١٩

١

# إبن النفيس

قصة حياة "إبن النفيس"
عبقرى الطب العربى الذى
جعل من معارف التشريح
علماً مستقلاً، وكشف أسرار
القلب، واكتشف الدورة الدموية
الصغرى قبل "وليم هارفى"
بأربعة قرون، إنها قصة تثير
الفخار، يقرؤها الكبار والصغار.



مركز الاهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الاهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الاهرام التجارية - قليوب - مصر